

مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَوْسِيُّ الْأَنْصَارِيُّ

فارسي نبي الله (۱)

اللواء الركن محمود شيت خطاب (*)

نسبه وأيامه الأولى :

هو محمد بن مَسْلَمَةَ بن سَلَمَةَ بن خالد بن عَدِي بن مَجْدَعَةَ بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو، وهو النَّبِيُّ بن مَالِك من الْأَوْس^(١)، حليف بني عبد الْأَشْهَل^(٢) من الْأَوْس^(٣) أيضاً.

وأمه : أُمّ سَهْم، واسمها خُلَيْدَةُ بنت أَبِي عُبَيْد بن وَهَب بن لَوْذَانَ بن عبد وَدَّ بن زيد بن ثَعْلَبَةَ بن الْخَزْرَجِ بن سَاعِدَةَ بن كَعْب، من الخزرج.^(٤)

يُكْنَى : أبا عبد الرحمن، وقيل : بل يكنى : أبا عبدالله،^(٥) ويبدو أنه كان يكنى أبا عبد الرحمن وهو ولده الأكبر، فمات عبد الرحمن فأصبح يكنى أبا عبدالله، وهذه هي عادة العرب قديماً وحديثاً، يكونون باسم ولدهم الأكبر، فإذا مات يكونون باسم الذي يليه في الكبر.

(*) ورد لكاتب البحث ترجمة في العدد العاشر صفحة ٢٣٣

(١) طبقات ابن سعد (٤٤٥/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) والاستيعاب (١٣٧٧/٣) وأسد الغابة (٣٣٠/٤).

(٣) الإصابة (٦٣/٦) وأسد الغابة (٣٣٠/٤).

(٤) الاستيعاب (٢٠٥) وجمهرة أنساب العرب (٣٣٩).

(٥) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣).

(٦) الاستيعاب (١٣٧٧/٣) وأسد الغابة (٣٣٠/٤) وتهذيب التهذيب [٤٥٤/٩].

أسلم محمد بالمدينة على يد مُصْعَب بن عُمَيْر^(٧) قبل إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن مُعَاذ،^(٨) وهو ممن سَمِيَ في الجاهلية محمداً،^(٩) لما كان يبلغهم أنه يُبعث في العرب نبي يقال له: محمد،^(١٠) وكان أهل الأديان السابقة ومنها من كان في المدينة يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب، مما يدل على استعداده واستعداد أهله لاعتناق الدين الجديد.

وقد آخى النبي ﷺ بعد الهجرة بين محمد بن مَسْلَمَة، وأبي عُبيدة بن الجراح.^(١١)

ولما بدأ الجهاد العملي بين المسلمين من جهة والمشركين ويهود من جهة أخرى، شهد محمد بَدْرًا^(١٢) والمشاهد كلها^(١٣) مع رسول الله ﷺ عدا غزوة تبوك، فإن رسول الله ﷺ استخلفه على المدينة حين خرج إلى تبوك،^(١٤) ولكنه شارك بماله في هذه الغزوة إذ حمل إلى النبي ﷺ مالاً،^(١٥) وهو ما تيسر لديه يومئذ مشاركاً في جيش العُسرة.

وسنلمس بوضوح مبلغ جهاده وجهوده في الغزوات والسرايا وشيكاً.



(٧) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣). وهو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري، انظر الغاية (٣٦٨/٢).

(٨) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) والبداية والنهاية (٢٨/٨).

(٩) الإصابة (٦٣/٦) وأنساب الأشراف (٥٣٨/١).

(١٠) المحبر (١٣٠).

(١١) المحبر (٧٥) وطبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) وأنساب الأشراف (٢٢٤/١) و(٢٧١/١).

(١٢) سيرة ابن هشام (٣٣٣/٢) وأسد الغابة (٣٣٠/٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣) والاستبصار (٢٤١) وجوامع السير (١٢٤).

(١٣) الاستبصار (٢٤١) وأسد الغابة (٣٣٠/٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣).

(١٤) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) وأنساب الأشراف (٣٦٨/١).

ومغازي الواقدي [٩٩٥/٣].

(١٥) مغازي الواقدي (٩٩١/٣).

في الغزوات

١ - وشهد محمد بن مسلمة غزوة بني قَيْنُقَاع من يهود، ويبدو أنه أبلى فيها بلاءً حسناً فكرمه النبي ﷺ ووهب له درعاً من دروعهم،^(١٦) كما أنه تولى إجلاءهم وقبض أموالهم.^(١٧)

٢ - وكان له مواقف مشرفة في غزوة «أحد»، فقد ولاه النبي ﷺ الحرس، فكان يطوف حول العسكر وفي العسكر، في خمسين رجلاً،^(١٨) وكان فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ حين ولّى الناس،^(١٩) فقد ثبت النبي ﷺ في نفر صبروا معه، أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، منهم محمد بن مسلمة.^(٢٠) قال محمد بن مسلمة: «سمعت أذناي وأبصرت عيناي رسول الله ﷺ يقول يومئذ: إِلَيَّ يَافْلَان! إِلَيَّ يَافْلَان! أنا رسول الله! فما عرّج منهما واحد عليه ومضيا»،^(٢١) فقد كان الموقف عصيباً إلى أبعد الحدود.

وبعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ليلاً بعد يوم أحد، خرج محمد بن مسلمة يطلب من النساء ماءً. وكنّ قد جئن أربع عشرة امرأة، منهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداونهم،^(٢٢) وهكذا لم يقتصر نشاط محمد بن مسلمة على القتال، بل امتد نشاطه إلى القضايا الإدارية أيضاً، فقد أشرف على العملية الإدارية التي نهض بها نساء المسلمين، فلما لم يجد عندهم ماءً، وكان النبي ﷺ قد عطش يومئذ عطشاً شديداً، ذهب ابن مسلمة

(١٦) مغازي الواقدي (١٧٩/١) وأنساب الأشراف (٣٠٩/١).

(١٧) مغازي الواقدي (١٧٨/١).

(١٨) أنساب الأشراف (٣١٥/١).

(١٩) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣).

(٢٠) مغازي الواقدي (٢٤٠/١).

(٢١) مغازي الواقدي (٢٣٧/١).

(٢٢) مغازي الواقدي (٢٤٩/١).

إلى قناة وأخذ سقاه حتى استقى من حِسي،^(٢٣) فأتى بماء عذب، فشرب رسول الله ﷺ ودعا لمحمد بن مسلمة بخير.^(٢٤)

٣ - وفي غزوة بني النضير من يهود، التي كان سببها المباشر محاولة يهود الغدر بالنبي ﷺ، وكان يومئذ في زيارتهم لمعاونته في تحمل ديتين لرجلين قتلهما أحد المسلمين.^(٢٥) ورجع النبي ﷺ من بني النضير إلى المدينة وتبعه أصحابه. فأرسل إلى محمد بن مسلمة يدعوه، فقال أبوبكر الصديق: «يارسول الله! قمت ولم نشعر»، فقال رسول الله ﷺ: «هَمَّت يهود بالغدر بي».

وجاء محمد بن مسلمة، فقال: «اذهب إلى يهود بني النضير، فقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده».

ولما جاءهم ابن مسلمة قال لهم: «إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم ليقول لكم: قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي . . ويقول: اخرجوا من بلدي، فقد أجلكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه»، قالوا: «يامحمد! ما كنا نرى أن يأتي بذلك رجل من الأوس!!»^(٢٦) وكان الأوس حلفاء بني النضير.

وحاصرهم النبي ﷺ خمسة عشر يوماً، فأجلاهم رسول الله ﷺ وولّى إخراجهم محمد بن مسلمة.^(٢٧) كما ولي قبض أموالهم وسلاحهم.^(٢٨)

ولم يكن تكليف محمد بن مسلمة بتبليغ بني النضير بالجلاء، وتوليته إجلاءهم وإخراجهم من ديارهم وقبض أموالهم وسلاحهم، إلا لأنه من الأوس حلفاء بني

(٢٣) الحسي: حفيرة قرية القعر، قيل إنه لا يكون إلا في أرض أسفلها حجارة وفوقها رمل أمطرت نشفها الرمل، فإذا انتهى إلى الحجارة أمسكته، انظر النهاية (٢٢٨/١).

(٢٤) مغازي الواقدي (٢٥٠/١).

(٢٥) انظر مغازي الواقدي (٣٦٣/١ - ٣٦٦).

(٢٦) مغازي الواقدي (٣٦٦/١ - ٣٦٧).

(٢٧) مغازي الواقدي (٣٧٤/١).

(٢٨) مغازي الواقدي (٣٧٧/١).

النضير، فأثبت محمد بن مسلمة أن ولاءه للإسلام وحده لا لأعداء الإسلام حتى ولو كانوا من حلفائه المقربين إلى قومه، وبذلك حلت مثل الإسلام مكان تقاليد الجاهلية، وكان ما فعله محمد بن مسلمة اختباراً عملياً لإيمانه العميق بالمثل الإسلامية الجديدة وتحليه نهائياً عن تقاليد الجاهلية البالية.

٤ - وفي غزوة «دُومَة الجَنْدَل»،^(٢٩) تفرق المشركون، فنزل رسول الله ﷺ يسأحتهم، فلم يجد بها أحداً، فأقام بها أياماً وبث السرايا وفرقها حتى غابوا عنه يوماً ثم رجعوا إليه، ولم يصادفوا منهم أحداً. إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم، فأتى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه فقال: «هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نَعْمَهُمْ» فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أياماً، فأسلم الرجل، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة.^(٣٠)

٥ - وشهد محمد بن مسلمة الخندق،^(٣١) فأقبل خالد بن الوليد في ليلة من ليالي تلك الغزوة في مائة فارس، أقبلوا حتى وقفوا وجاه قبة النبي ﷺ، فأنذر محمد بن مسلمة قائد حرس النبي ﷺ عُبَاد بن بشر. وأقبل خالد في ثلاثة نفرٍ هورابعهم، فقال: «هذه قبة محمد! ارموا. . ارموا. .» فقاومهم محمد بن مسلمة، حتى وقف ومن معه من المسلمين على شفير الخندق، وخالد ومن معه بشفير الخندق من الجانب الآخر، حتى رُدَّهم المسلمون ولم ينالوا خيراً.^(٣٢) وذكر محمد بن مسلمة أنه كان مع قسم من المسلمين حول قبة رسول الله ﷺ يحرسونه، إذ وافت أفراس على (سَلْع)،^(٣٣) فبصر بهم عباد بن بشر، فأخبرهم بهم، فمضى إلى الخيل، وعباد قائم على باب قبة النبي ﷺ أخذاً بقائم السيف ينتظر عودة محمد بن مسلمة إلى موضعه

(٢٩) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، وبينها وبين المدينة المنورة، فيها حصن مبني بالجندل، لذلك سميت بدومة الجندل، وهي وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٦/٤).

(٣٠) مغازي الواقدي (٤٠٣/١ - ٤٠٤).

(٣١) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣).

(٣٢) مغازي الواقدي [٤٦٨ - ٤٦٧/٢].

(٣٣) سلع: جبل بالقرب من المدينة المنورة، بينها وبين جبل أحد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٧/٥).

في حراسة قبة النبي ﷺ، ثم يقول ابن مسلمة: «كان ليلنا بالخندق نهاراً، حتى فرّجه الله»،^(٣٤) يريد أنهم يسهرون الليل كله خوفاً من مباغطة قريش لهم وحرصاً على سلامة النبي ﷺ والمسلمين.

٦ - بني قريظة - وفي غزوة بني قريظة من يهود، كان محمد بن مسلمة أحد فرسان المسلمين،^(٣٥) وقد ذكر أن المسلمين حاصروهم قبل الفجر، وجعلوا يدنون من الحصن ويرمونهم عن كثب، ولزموا حصونهم لا يفارقونها حتى حلّ المساء، والنبي ﷺ يحضهم على الجهاد والصبر. وبات المسلمون حول حصون يهود حتى تركوا قتال المسلمين وطلبوا أن يفاوضوا النبي ﷺ، فوافق النبي ﷺ على المفاوضة، فأنزلوا نباش بن قيس أحدهم، فكلم رسول الله ﷺ ساعة، وقال: «يا محمد انزل على ما نزلت عليه بنو النضير: لك الأموال والسلاح، وتحقن دماءنا ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري، ولنا ما حملت الإبل إلا السلاح»، فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا: «ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل» فقال: رسول الله ﷺ: «لا، إلا أن تنزلوا على حكمي»^(٣٦).

واشتد حصار المسلمين لبني قريظة، وكان محمد بن مسلمة على حرس النبي ﷺ. فمر بالحرس عمرو بن سَعْدَى الذي لم يشايع بني قومه من يهود على نقضهم عهودهم، فقال ابن مسلمة: «من هذا؟» فقال: «عمرو بن سَعْدَى» فقال ابن مسلمة: «مرّ! اللهم لا تحرمي من إقالة عثرات الكرام»، فخلّى سبيله، وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ، فبات به حتى أصبح، فلما أصبح غدا فلم يُدَرَّ أين هو حتى الساعة، فسئل رسول الله ﷺ عنه فقال: «ذلك رجل نجّاه الله بوفائه».^(٣٧)

(٣٤) مغازي الواقدي (٢/٤٦٨).

(٣٥) انظر أسماء الفرسان المسلمين في مغازي الواقدي (٢/٤٩٨).

(٣٦) انظر تفاصيل المفاوضات في مغازي الواقدي (٢/٥٠١ - ٥٠٣).

(٣٧) مغازي الواقدي (٢/٥٠٤) والدرر (١٩١).

ولما جهدهم الحصار، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بأسراهم، فكتفوا رباطاً، وجعل على كتابهم محمد بن مسلمة. (٣٨)

ووصف محمد بن مسلمة الموقف الراهن فقال: «وتنحى رسول الله ﷺ فجلس، ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! حلفاؤنا دون الخرج، وقد رأيت ما صنعت ببني قَيْنِقَاعِ بالأمس، حلفاء ابن أبيّ: ونصبت له ثلاثمائة حاسر وأربعمائة ذراع، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نقضهم العهد، فهبهم لنا! ورسول الله ساكت لا يتكلم، حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها، فقال رسول الله ﷺ: أما ترَضُونَ أن يكون الحكم فيهم إلى رجلٍ منكم؟ قالوا: بلى! قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وسعد يومئذ في المسجد في خيمة يداوي جرحه.

وجاء سعد، فأكثر عليه الأوس. فقال: «قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»، وأقبل إلى رسول الله ﷺ، فقال: «أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه المؤسّى، وتُسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال»، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله عز وجل من فوق سبعة أرقعة»، (٣٩) فنفذ فيهم الحُكْمُ العادل. (٤٠)

وابتاع محمد بن مسلمة من السَّبْيِ ثلاثة: امرأة معها ابناها، بخمسة وأربعين ديناراً، وكان ذلك حقه وحق فرسه من السَّبْيِ والأرض والرَّثَّة، (٤١) وكان أسهم النبي ﷺ للفارس ثلاثة أسهم: له سهم وفرسه سهمان. (٤٢)

٧ - وشهد محمد بن مسلمة غزوة «الحُدَيْبِيَّة»، (٤٣) فكان أحد فرسان الطليعة التي قدمها رسول الله ﷺ بإمرة عبّاد بن بشر والمؤلفة من عشرين فارساً. (٤٤)

(٣٨) مغازي الواقدي (٥١٠/٢).

(٣٩) الأرقعة: السموات. الواحدة رقيق، شرح أبي ذر [٣٠٦].

(٤٠) انظر التفاصيل في مغازي الواقدي (٥١٠/٢ - ٥٢٥).

(٤١) الرثة: رديء المتاع، وسقط المتاع (ج): رثت ورثاث.

(٤٢) مغازي الواقدي (٥٢٤/٢).

(٤٣) قرية صغيرة على تسعة أميال من مكة، انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (٢١٦/٢).

(٤٤) مغازي الواقدي (٥٧٤/٢).

وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحديبية يتحارسون الليل ، فكان ثلاثة من أصحابه يتناوبون الحراسة أحدهم محمد بن مسلمة . وكان ابن مسلمة على فرس النبي ﷺ ليلة من تلك الليالي ، وعثمان بن عفان بمكة بعد ، وقد كانت قريش بعثت ليلاً خمسين رجلاً ، وأمروهم أن يطوفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غرة ، فأخذهم محمد بن مسلمة وأصحابه فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ . وكان عثمان بمكة قد أقام بها ثلاثاً يدعو قريشاً ، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ على أهلهم ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة تحت الشجرة على الموت . وبلغ قريشاً حبس أصحابهم ، فجاء جمع منهم إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة ، وأسروا حينئذ من المشركين أسرى.^(٤٥)

وعندما عُقد صلح الحديبية بين المسلمين وقريش ، كان محمد بن مسلمة أحد الشهود المسلمين على عقد الصلح مع جماعة من المسلمين منهم أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً.^(٤٦)

٨ - وشهد محمد بن مسلمة غزوة «خيبر» ،^(٤٧) فدعاه رسول الله ﷺ وقال : «انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم بريئاً من الوباء ، نأمن فيه بياتهم» ، فطاف ابن مسلمة حتى انتهى إلى «الرَّجِيع» ،^(٤٨) ثم عاد إلى النبي ﷺ ليلاً فقال : «وجدت لك منزلاً» . فقال رسول الله ﷺ : «على بركة الله» ، فلما أمسى رسول الله ﷺ تحول وأمر الناس فتحولوا إلى الرَّجِيع.^(٤٩)

(٤٥) مغازي الواقدي (٦٠٢/٢) .

(٤٦) مغازي الواقدي (٦١٢/٢) وأنساب الأشراف (٣٥٠/٢) .

(٤٧) خيبر : على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام ، انظر معجم البلدان (٤٩٥/٣) .

(٤٨) الرَّجِيع : وإد قرب خيبر ، انظر وفاء الوفاء (٣١٥/٢) .

(٤٩) مغازي الواقدي (٦٤٤/٢) .

وقد شارك محمد بن مسلمة في قطع النخل الذي يحيط بحصن «النطاة» أحد حصون خيبر، فكان ينظر إلى صُور^(٥٠) من كبيس^(٥١) ويقول: «أنا قطعت هذا الصُور بيدي حتى سمعت بلالاً ينادي عزيمةً من رسول الله ﷺ: لا يقطع النخل! فأمسكنا»^(٥٢).

وكان محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة يقاتل مع المسلمين يومئذ، وكان يوماً صائفاً شديد الحر، وهو أول يوم قاتل فيه رسول الله ﷺ أهل حصن النطاة وبها بدأ، فلما اشتد الحر على محمود وعليه أداته كاملة، جلس تحت حصن ناعم يبتغي فيه، ولا يظن محمود أن فيه أحداً من المقاتلة، إنما ظن أن فيه أثاثاً ومتاعاً، وناعم يهودي وله حصون ذوات عدد، فكان هذا منها - فدلّى عليه مَرَحِب اليهودي رحىً، فأصاب رأسه، فاستشهد في المعركة^(٥٣).

وخرج مَرَحِب اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي مَرَحِبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبٌ
أَطْعُنُ أحياناً وَحِيناً أَضْرِبُ يَحْجُمُ عَنْ صَوْلَتِي الْمَجَرَّبُ

وهو يقول: من يبارز؟، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا؟» فقال محمد بن مسلمة: «أنا له يارسول الله! أنا والله الموتور الثائر، قُتِلَ أخي بالأمس، فقال: «فَقُمْ إِلَيْهِ! اللَّهُمَّ أَعْنِهِ عَلَيْهِ». فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عُمرِيَّة^(٥٤) من شجر العُشْرِ^(٥٥) فجعل أحدهما يلوذ بها^(٥٦) من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما فيها فَنَنْ^(٥٧) ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه

(٥٠) الصور: النخل الصغير أو المجتمع.

(٥١) الكبيس: ضرب من التمر.

(٥٢) مغازي الواقدي [٦٤٥/٢].

(٥٣) مغازي الواقدي (٦٤٥/٢).

(٥٤) عمرية: أي قديمة طويلة العمر.

(٥٥) العُشْر: بضم العين وفتح الشين، شجر له صمغ.

(٥٦) يلوذ بها: يلجأ إليها ويستتر بها من عدوه.

(٥٧) فنن: بفتح الفاء والنون: غصن.

فاتقاه بدرقة^(٥٨) فوقع سيفه فيها فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله. ^(٥٩)

والصحيح الذي عليه أكثر أهل السير وأهل الحديث أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه هو الذي قتل مرجأ اليهودي بخير. ^(٦٠)

وبرز أسير اليهودي. وكان رجلاً أيّداً، وكان إلى القصر، فجعل يصيح: «من يبارز؟»، فبرز له محمد بن مسلمة، فاختلفا ضربات، ثم قتله محمد بن مسلمة. ^(٦١)

وكان يهود خيبر في حصونهم يرمون المسلمين بالسهم، ويحاولون قتل النبي ﷺ، فكان محمد بن مسلمة، فيمن ترّس عن النبي ﷺ، قال محمد بن مسلمة: «كنت فيمن ترّس عن النبي ﷺ، فجعلت أصيح بأصحابه: تراموا بالحجف! ^(٦٢) ففعلوا فرمونا حتى ظننت ألا يُقْلَعُوا، فرأيت رسول الله ﷺ رمى بسهم، فما أخطأ رجلاً منهم. وتبسم إليّ رسول الله ﷺ، وانفرجوا ودخلوا الحصن». ^(٦٣)

وحين استسلم أحد الحصون عنوة للمسلمين، دفع النبي ﷺ كنانة بن أبي الحقيق، إلى محمد بن مسلمة، فقتله بأخيه الشهيد محمود بن مسلمة ^(٦٤) الذي استشهد في تلك الغزوة، وأخذ سهمه من الأرض واشترى من غيره أيضاً. ^(٦٥) وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأل يهود فقالوا: «يا محمد! نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها»، فساقاهم ^(٦٦) رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع، وكان

(٥٨) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عبق.

(٥٩) سيرة ابن هشام (٣/٣٨٣ - ٣٨٥) وانظر مغازي الواقدي (٢/٦٥٤ - ٦٥٧) والدرر (٢١١ - ٢١٢).

(٦٠) الاستيعاب (٣/١٣٧٧) وأسد الغابة (٤/٥٣٣).

(٦١) مغازي الواقدي (٢/٥٦٧).

(٦٢) الحجف: جمع الحجفة، وهي الترس من جلود بلا خشب ولا رباط من عصب.

(٦٣) مغازي الواقدي (٢/٦٢٢).

(٦٤) مغازي الواقدي (٣/٦٧٢ - ٦٧٣) وابن الأثير (٢/٢٢١).

(٦٥) مغازي الواقدي (٢/٩٦٠).

(٦٦) ساقى فلان فلاناً نخله أو كرمه: إليه واستعمله فيه على أن يغمره ويسقيه ويقوم بمصلحته من الأبار وغيره،

فما أخرج الله منه فللعامل سهم من كذا وكذا سهماً مما تغله، والباقي للمالك النخل، أنظر لسان العرب

(١١٨/١٩).

يزرع تحت النخل، فقال رسول الله ﷺ: «أقركم على ما أقركم الله»، فكانوا على عهد رسول الله ﷺ حتى توفي، وأبي بكر، وصدر من خلافة عمر بن الخطاب،^(٦٧) ثم أجلى عنها يهود، وبقي محمد محافظاً على ما يملك من أرض خيبر.^(٦٨)

٩ - ولما خرج رسول الله ﷺ على عمرة القضية «غزوة القضية» فانتهى إلى (ذي الحليفة)،^(٦٩) قدّم الخيل أمامه وهي مائة فرس، واستعمل عليها محمد بن مسلمة.^(٧٠) وسار رسول الله ﷺ يُلبّي والمسلمون يلبون، ومضى محمد بن مسلمة بالخيّل إلى «مرّ الظهران»، فوجد بها نفراً من قريش، فسألوا محمد بن مسلمة فقال: «هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله». فرأوا سلاحاً مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فقالوا: در والله ما أحدثنا حدثاً، ونحن على كتابنا ومدننا، فقيم يغزونا محمد في أصحابه؟! ونزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران، وقدّم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن «يأجج»^(٧١) حيث ينظر إلى أنصاب الحرم. وبعثت قريش مكرز بن حَفْص بن الأحنف في نفر من قريش، حتى لقوه ببطن يأجج، ورسول الله ﷺ في أصحابه والهدي والسلاح قد تلاحقوا، فقالوا: «يا محمد! والله ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافرين. السيوف في القرب»، فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخلها إلا كذلك».^(٧٢)

١٠ - وهكذا بذل محمد بن مسلمة قصارى جهوده وغاية جهاده في غزوات النبي ﷺ جندياً من جنود المسلمين، وقائداً مرءوساً من قادتهم الذين عملوا تحت راية الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٦٧) مغازي الواقدي (٢/٦٩٠/٦٩١).

(٦٨) مغازي الواقدي (٧٢١).

(٦٩) والحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، على طريق المدينة - مكة، ومنها ميقات أهل المدينة، انظر معجم البلدان (٣/٣٢٩).

(٧٠) طبقات ابن سعد (٣/٤٤٤) ومغازي الواقدي (٢/٧٣٣).

(٧١) يأجج: مكان من مكة على ثمانية أميال، انظر معجم البلدان (٨/٤٩٠).

(٧٢) مغازي الواقدي (٢/٧٣٤).

قائد السرايا:

١ - سريته إلى كعب بن الأشرف^(٧٣) اليهودي:

وكان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية (٦٢٤ م).

ولما اتصل بكعب بن الأشرف - وهو رجل يهودي من نبهان من طيء وأمه من بني النضير - قتل صناديد قريش بيدرقال: «بطن الأرض خير من ظهرها».

ونهب ابن الأشرف إلى مكة، فجعل يرثي قتلى قريش، ويحرض على قتال النبي ﷺ، ويشبب بنساء المسلمين قصداً لإيذاء أزواجهن، وكان شاعراً، ثم عاد من مكة إلى المدينة، فلم يزل يؤذي رسول الله ﷺ ويدعو إلى خلافه ويسب المسلمين حتى آذاهم أعظم الأذى، فقال رسول الله ﷺ: «من لي بابن الأشرف، فإنه يؤذي الله ورسوله والمؤمنين؟»، فقال له محمد بن مسلمة: «أنا له يارسول الله، أنا أقتله إن شاء الله» فقال: «فافعل إن قدرت على ذلك».

ومكث محمد بن مسلمة أياماً مشغول النفس بما وعد رسول الله ﷺ من نفسه في قتل ابن الأشرف، فانتدبه رسول الله ﷺ وانتدب معه سلكان بن سلامة بن وفش أباً نائلة أحد بني عبد الأشهل. وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وفش والحارث بن أوس بن معاذ، وهما من بني عبد الأشهل، وأبا عبس بن جبر أخا بني حارثة،^(٧٤) وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا غير ما يعتقدون،^(٧٥) على سبيل جواز ذلك في الحرب.

وقدّموا إلى ابن الأشرف سلكان بن سلامة، فقصد له وأظهر له موافقته على

(٧٣) انظر: مغازي الواقدي (١٨٤/١ - ١٩٣) وسيرة ابن هشام (٤٣٠/٢ - ٤٤٣) وطبقات ابن سعد (٣١/٢ - ٣٤) والطبري. (٤٩١/٤٨) وابن الأثير (١٤٣/٢ - ١٤٥) وعيون الأثر (٢٩٨/١ - ٣٠٣) والمحرر (٢٨٢) والبدية والنهاية (٥/٤) والإمتاع (١٠٧) وتاريخ الخميس (٤١٢/١) وسنن أبي داود (٢٧٧/١) وجوامع السيرة (١٥٤ - ١٥٦) والنويري (٧/١٧) والدرر (١٥٠ - ١٥٣) وأنساب الأشراف (٣٧٤/١).

(٧٤) في عيون الأثر، أن اسمه عبد الرحمن.

(٧٥) أن يقولوا في الرسول ﷺ ما لا يعتقدون خدعة للعدو على سبيل جواز ذلك مع الأعداء في الحرب.

الانحراف من رسول الله ﷺ . وشكا إليه ضيق حالهم ، وكلمه في أن يبيعه وأصحابه طعاماً ، فيرهنوه سلاحهم ، فأجابهم إلى ذلك .

ورجع سلكان إلى أصحابه ، فخرجوا إلى ابن الأشرف اليهودي ، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى «بقيع الغرقد»^(٧٦) في ليلة مقمرة ، فأتوا كعباً ، فخرج إليهم من حصنه ، فتماشوا ، فوضعوا عليه سيوفهم ، ووضع محمد بن مسلمة مغولاً^(٧٧) كان معه في ثنته^(٧٨) فقتله .

وصاح ابن الأشرف صيحة شديدة انذعر بها أهل الحصون حواليه ، فأوقدوا النيران دون جدوى .

وجرح الحارث بن أوس في رجله ببعض سيوف أصحابه أو في رأسه ، فنزفه الدم ، وتأخر قليلاً عن أصحابه ، الذين سلكوا على بني أمية بن زيد إلى بني قريظة ، إلى «بُعَاث»^(٧٩) ، إلى «حَرَّةُ الْعَرِيض»^(٨٠) فانتظروا صاحبهم الحارث هناك حتى وافاهم ، فأتوا به رسول الله ﷺ في آخر الليل وهو يصلي ، فأخبروه بقتل ابن الأشرف .

وهكذا انتهت حياة أحد أعداء المسلمين الذي آذاهم وحرّض عليهم كثيراً .

٢ - سريته إلى القُرطاء :

خرج محمد بن مسلمة من المدينة المنورة لعشر ليال خلون من شهر المحرم على رأس تسعة وخمسين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ في السنة السادسة الهجرية ، بعثه في ثلاثين راكباً إلى القُرطاء ، والقُرطاء بنو قرط وقُرَيْط بنو عبد الله بن أبي بكر بن

(٧٦) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة المنورة .

(٧٧) المغول: شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه . وقيل : هو حديدة لها حد ماض وقفاً ، وقيل : هو سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على سوطه ليقتال الناس .

(٧٨) الثنه من الإنسان : مادون السرة ، فوق العانة ، أسفل البطن .

(٧٩) بعث: موضع في نواحي المدينة كانت فيه وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية ، أنظر معجم البلدان (٢٢٣/٢) .

(٨٠) حَرَّةُ الْعَرِيض: حَرَّةُ الْقَرَب من المدينة . لا ذكر لها في معجم البلدان .

كلاب، وهم بطن من بني بكر من كلاب، وكانوا ينزلون «البكرات»^(٨١) بناحية «ضريبة»^(٨٢)، وبين ضريبة والمدينة سبع ليال.

وأمر النبي ﷺ محمد بن مسلمة أن يشن على القرطاء الغارة، فسار الليل، وكمن النهار، وأغار عليهم، فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم واستاق نعماً وشاء، ولم يطاردهم الذين هربوا من القرطاء.

وانحدر محمد بن مسلمة إلى المدينة، فخمس رسول الله ﷺ ما جاء به، وأخذ أصحاب ابن مسلمة ما بقي، فعدلوا الجزور بعشر من الغنم، وكانت النعم مائة وخمسين بغيراً، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وغاب تسع عشرة ليلة، وقدم لليلة التي بقيت من المحرم.^(٨٣)

وقد استطاع محمد بن مسلمة بهذه العملية السريعة الخفيفة، أن يباغت العدو مباغته كاملة بالزمان، فانتصر عليه بسهولة ويسر انتصاراً ساحقاً.

٣ - سرية إلى ذي القصة:

بعث النبي ﷺ محمد بن مسلمة إلى «ذي القصة»^(٨٤) في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة، في عشرة نفر إلى بني ثعلبة وبني عوال من ثعلبة بن سعد، وهم بذئ القصة، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً على طريق «الرَبْدَة»^(٨٥)، فورد المسلمون عليهم ليلاً، فأحرق بهم القوم وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوا المسلمين.

(٨١) البكرات: جبال شُخُّ سود بناحية ضريبة، انظر معجم البلدان (٢/٢٥٦).

(٨٢) ضريبة: قرية عامرة قديمة على وجه الدهر، في طريق مكة من البصرة، تقع في نجد، فيها مياه من بئر، انظر معجم البلدان (٥/٤٣١ - ٤٣٤).

(٨٣) طبقات ابن سعد (٢/٧٨) وانظر مغازي الواقدي (٢/٥٣٤ - ٥٣٥) وأنساب الأشراف (١/٣٧٦).

(٨٤) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو طريق الرَبْدَة، انظر معجم البلدان (٧/١١٤).

(٨٥) الرَبْدَة: قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، انظر معجم البلدان (٤/٢٢٢).

ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، فُضِرْبَ كعبه فلا يتحرك، وجرّد المشركون المسلمين من الثياب، فمر بمحمد بن مسلمة، رجل من المسلمين، فحمله على بعيه ورد به المدينة المنورة.

وبعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نعماً وشاءً فساقه ورجع إلى المدينة. ^(٨٦)

وقد نجا محمد بن مسلمة من الموت، لأن المشركين بعد إصابته بجروح بليغة، ظنوا أنه قد قضى نجه كسائر أفراد سريره، ولكنه لم يكن قد مات، فنجا من الموت ليواصل خدمة الإسلام والمسلمين، من جديد.

مع الخلفاء الراشدين

١ - مع عمر:

أ - كان محمد بن مسلمة صاحب العمال أيام عمر بن الخطاب، فكان عمر إذا شُكي إليه عامل أرسل محمداً يكشف الحال، ^(٨٧) فكان يشغل منصب المفتش العام للدولة حسب المصطلحات الإدارية الحديثة.

وقد أنشأ سعد بن أبي وقاص لسكناه داراً في الكوفة من نقض ^(٨٨) آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي مدينة «الحيرة». وكانت الأسواق قريبة من داره، وكانت الأصوات المرتفعة تمنع سعداً الحديث، فلما أنجز بناء الدار، ادعى الناس عليه ما لم يقل، فقالوا: قال سعد: «سَكَنَ عَنَى الصَّوَيْتَ». ^(٨٩)

(٨٦) طبقات ابن سعد (٢/٨٥) ومغازي الواقدي (٢/٥٥١-٥٥٢) وأنساب الأشراف (١/٣٧٧)

(٨٧) أسد الغابة (٤/٣٣٠)

(٨٨) نقض: اسم البناء المنقوض إذا هدم.

(٨٩) الطبري (٤/٤٦-٤٧).

وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك عن سعد بن أبي وقاص، وأن الناس يسمون داره قصر سعد! فدعا محمد بن مسلمة وأرسله إلى الكوفة وقال له: اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه، ثم ارجع عودك على بدئك^(٩٠).

وخرج محمد بن مسلمة من المدينة إلى الكوفة، فلما قدم الكوفة اشترى حطباً، ثم أتى دار سعد، فأحرق الباب^(٩١).

وأتى سعد، فأخبر الخبر، فقال: «هذا رسول أرسل لهذا الشأن»، وبعث لينظر من هو الذي حرق باب داره، فإذا هو محمد بن مسلمة، فأراده على النزول والدخول، فأبى فعرض عليه نفقة، فلم يأخذ شيئاً.

وخرج سعد إلى محمد بن مسلمة، فدفع ابن مسلمة كتاب عمر إلى سعد: «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً، ويسمى: قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال. انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر باباً تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت»، فحلف سعد ما قال الذي قالوا!!

ورجع محمد بن مسلمة من الكوفة إلى المدينة، حتى إذا دنا من المدينة نفذ زاده، فجعل يأكل قشر الشجر، فأقبل على عمر وقد مرض لسبب ذلك، فأخبره خبره كله، فقال عمر: «هلا قبلت من سعد؟!» فقال محمد بن مسلمة: «لو أردت ذلك، كتبت لي به، أو أذنت لي فيه» فقال عمر: «إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه، عمل بالحزم أو قال به».

وأخبر ابن مسلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بيمين سعد، وقوله، فقال عمر: «هو أصدق ممن روى عليه وممن أبلغني»،^(٩٢) وقد حدث ذلك سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م).

(٩٠) الطبري (٤٧/٤).

(٩١) ابن الأثير (٥٢٩/٢).

(٩٢) الطبري (٤٧/٤) وابن الأثير (٥٢٩/٢ - ٥٣٠) وانظر كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧٤ - ٢٧٥) - ط ٢.

ب - اتهم نفر من بني «أسد» سعداً في دينه وصلاته وعدله!! فشكوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أخرج أوقات الفتح الإسلامي، فقد اجتمعت قوى الفرس كلها في «نَهاوند».^(٩٣) وأخذ المسلمون والفرس يستعدون لخوض معركة حاسمة، خاصة وأن سعداً هو القائد العام، وهو المسئول الأول عن الفتح في الشرق.

وقال عمر لأولئك النفر: «إن الدليل على ما عندكم من الشر، نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم مَنْ استعد! وأيم الله، لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم، وإن نزلوا بكم» ثم بعث محمد بن مسلمة للتحقيق.

وقدم ابن مسلمة الكوفة. فأجرى التحقيق مع سعد بن أبي وقاص علناً، ذلك أنه كان يأخذ سعداً من مسجد إلى مسجد من مساجد الكوفة، ويسأل الناس عنه وعن سيرته فيهم علناً، فيقولون: لا نعلم إلا خيراً، ولا نشتهي به بديلاً.

ووصل ابن مسلمة بسعد إلى الجماعة التي كانت تمالي أصحاب الشكوى على سعد، فلم تجرؤ أن تطعن عليه أو تقول فيه سوءاً.

وانتهى ابن مسلمة بسعد إلى مسجد بني عبس، فقال محمد بن مسلمة: «أنشد الله رجلاً يعلم حقاً إلا قال»، فقال أسامة بن قتادة: «اللهم إن نشدتنا، فإنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية»، فقال سعد: «اللهم إن كان قالها كاذباً ورثاء وسمعة، فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن» فعمى، واجتمع عنده عشرة بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: «دعوة سعد الرجل المبارك».^(٩٤)

(٩٣) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همدان بينهما ثلاثة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٩/٨ - ٣٣٢).

والطبري (١٢١/٤) وابن الأثير (٥/٣).

(٩٤) الطبري (١٢١/٤)

وقال سعد : «إني لأول رجل أهرق دماً من المشركين . ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه . وما جمعهما لأحد قبلي . وقد رأيتني خمس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أصلي ، وأن الصيد يلهيني» .^(٩٥)

وخرج محمد بن مسلمة بسعد وبخصومه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حتى قدموا عليه ، فأخبره الخبر ، فقال : «ياسعد! ويحك كيف تصلي؟» ، قال سعد : «أطيل الأوليين وأحذف الآخرين» ، فقال عمر : «هكذا الظن بك» ، ثم قال : «لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيناً» .^(٩٦)

وعزل عمر سعداً سنة إحدى وعشرين للهجرة^(٩٧) (٦٤١ م) وولى عمار بن ياسر مكانه ، ولم يعزل سعداً عن عجز أو خيانة ، كما قال عمر ،^(٩٨) فاتهم أهل الكوفة عمار بن ياسر بالضعف وأنه لا علم له بالسياسة ، فعزله عمرو وهو يقول : «مَنْ عذيري من أهل الكوفة ! إن استعملت عليهم القوى فجروه ، وإن دليت عليهم الضعيف حقروه!» .^(٩٩)

جـ - وكان عمر بن الخطاب يرسل محمد بن مسلمة إلى عمّاله ليأخذ شطر أموالهم لثقتة به ،^(١٠٠) وقد بعثه عمر إلى عمرو بن العاص عامله على مصر ، فقاسمه ماله .^(١٠١)

لقد كان عمر يكتب أموال عمّاله إذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك ، وربما أخذه منهم ، فكتب إلى عمرو بن العاص : «أنه قد فَشْتُ لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر» ، فكتب إليه عمرو : «إن أرضنا أرض

(٩٥) الطبري (١٢١/٤ - ١٢٢) وانظر المعارف لابن قتيبة (٢٤٢) .

(٩٦) الطبري (١٢٢/٤) وابن الأثير (٦/٣) .

(٩٧) العبر (٢٥/١) .

(٩٨) فتح الباري بشرح البخاري (٥٥/٧) .

(٩٩) البلاذري (٣٩٣) وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي (٨٨) .

(١٠٠) أسد الغابة (٣٣٠/٤) .

(١٠١) الإصابة (٦٤/٦) .

مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا»، فكتب إليه: «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إليّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سوت بك ظناً، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفِه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء»، فقاسمه ماله.

وقال عمرو: «إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة^(١٠٢) هذه المعاملة لزمان سوء. لقد كان العاص يلبس الخنز بكفاف الديباج»، فقال محمد بن مسلمة: «مه! لولا زمان ابن حنتمة، هذا الذي تكرهه، ألفت معطلاً عنزاً بفناء بيتك، يسرك غزرها، ويسوءك بكووها»، قال: «أنشدك الله أن تخبر عمر بقولي، فإن المجالس بالأمانات»، فقال: «لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا، وعمر حيّ». ^(١٠٣)

لقد كان عمر إذا أحب أن يُؤتى بالأمر كما يريد، بعث محمد بن مسلمة، وكان معداً لكشف الأمور المعضلة في البلاد. ^(١٠٤)

ويمكن أن نتصور مبلغ عفة محمد بن مسلمة ونزاهته وذكائه وقوة شخصيته وثقته بنفسه والتزامه المطلق بقول الحق وإقراره، بحيث أن عمر بن الخطاب وهو من هو أمانة وحرصاً على مصلحة المسلمين يعتمد عليه اعتماداً بلا حدود في قضايا الولاية ومحاسبة المنحرفين منهم محاسبة لا هوادة فيها، كما استعمله على صدقات بني جُهَيْنَةَ^(١٠٥) مما يدل على أنه كان مثالياً في عفته ونزاهته، متفوقاً في ذكائه وقوة شخصيته، واثقاً بنفسه أعظم الثقة، ملتزماً بقول الحق أشد الالتزام، وتلك ثمرة من ثمرات إيمانه العميق بعقيدته وعمله بهذه العقيدة وإخلاصه في عمله.

(١٠٢) حنتمة: هي أم عمر بن الخطاب وهي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي.

(١٠٣) البلاذري (٣٠٧ - ٣٠٨).

(١٠٤) الإصابة (٦/٦٤).

(١٠٥) الإصابة (٦/٦٣ - ٦٤) وأسد الغابة (٤/٣٣٠) والبداية والنهاية (٨/٢٧).

٢ - مع عثمان :

أ - تصاعد شغب قسم من الناس على ولاتهم سنة خمس وثلاثين للهجرة (٦٥٥ م) بدس عبدالله بن سبأ الذي كان يهودياً وأسلم أيام عثمان، ثم تنقل بالحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد إضلال الناس، فلم يقدر منهم على ذلك، فأخرجه أهل الشام، فأتى مصر وأقام فيهم وقال لهم: «العجب ممن يُصدّق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع»، فوضع لهم الرجعة، فقبلت منه. ثم قال لهم بعد ذلك: «إنه كان لكل نبيّ وصي، وعليّ وصي محمد، فمن أظلم بمن لم يُجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّه وإن عثمان أخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس».

وبث دعائه، وكاتب مَنْ استفسد في الأمصار وكتبوه، ودعوا بالسر إلى ما هو عليه رأيهم، وصاروا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس!!

وأتى أهل المدينة عثمان فقالوا: «يا أمير المؤمنين! أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟» فقال: «ما جاء إلا السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ»، قالوا: «نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم».

ودعا عثمان محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة. وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبدالله بن عمر إلى الشام، وفرق رجالاً سواهم، فرجعوا جميعاً فقالوا: «ما أنكرنا شيئاً أيها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم»^(١٠٦)

(١٠٦) الطبري (٣٤٠ - ٣٤١) وابن الأثير (١٥٤ - ١٥٥).

لقد كان محمد بن مسلمة موضع ثقة عثمان كما كان موضع ثقة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهم جميعاً من قبله، كما كان موضع ثقة النبي ﷺ الكاملة فانتدبه عثمان إلى أخطر الثغور الإسلامية: الكوفة، لينقل إليه آلام الناس وآمالهم، فما وجد ابن مسلمة ولا وجد غيره من الموفدين ما كان يذيعه المغرضون، بل وجدوا الأمور تدعو إلى الاطمئنان^(١٠٧).

وخرج أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وأظهروا أنهم يريدون الحج، فلما كانوا من المدينة على ثلاث تقدموا إلى معسكرات قريبة من المدينة، ثم اقتحموا المدينة. فلما جاءت الجمعة التي على أثر دخولهم المدينة، خرج عثمان فصلى بالناس، ثم قام على المنبر فقال: «يا هؤلاء! الله الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب»، فقام محمد بن مسلمة فقال: «أنا أشهد بذلك».

وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صُرع على المنبر مغشياً عليه، فأدخل داره^(١٠٨).

واستنجد عثمان بعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فأمر الناس بالركوب إلى معسكر أهل الفتنة الذين يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً، فأتوا المصريين وكلموهم، وكان الذي يكلمهم عليٌّ ومحمد بن مسلمة، فسمعوا مقاتلتهما ورجعوا إلى مصر، فقال قائد المصريين^(١٠٩) لمحمد بن مسلمة: «أتوصينا بحاجة؟»، قال: «نعم، تتقي الله، تردُّ من قبلك عن إمامهم، فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع». فقال: «أفعل إن شاء الله»^(١١٠).

(١٠٧) من الواضح أن هدف عبدالله بن سبأ. هو تمزيق صفوف المسلمين ونشر الفوضى والاختلاف والفرقة فيهم بنشر الإشاعات الكاذبة، وتحريف تعاليم الدين الحنيف، وقد نجح هذا اليهودي الذي تظاهر بالإسلام في مهمته نجاحاً كبيراً.

(١٠٨) الطبري (٣٥٢/٤ - ٣٥٣) وابن الأثير (٣/١٦٠ - ١٦١).

(١٠٩) هو عبدالرحمن بن عُدَيْس البَكْوِي.

(١١٠) الطبري (٣٥٩/٤ - ٣٦٠) وابن الأثير (٣/١٦٢ - ١٦٣).

وعاد المصريون إلى مصر ولكنهم رجعوا ثانية من الطريق إلى المدينة، كما عاد الكوفيون والبصريون، فخرج إليهم محمد بن مسلمة وسألهم عن سبب عودتهم، فأخرجوا له صحيفة في أنبوبة رصاص يأمر فيها عثمان عمّاله بجلد قاداتهم وحلق رءوسهم ولحاهم وصلب بعضهم.

ولما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة وقالوا له: «قد كلّمنا علياً ووعدنا أن يكلمه، وكلّمنا سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فقالا: «لا ندخل في أمركم»، وقالوا لمحمد بن مسلمة: ليحضر مع عليّ عند عثمان بعد الظهر، فوعدهم بذلك.

ودخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان، فاستأذنا للمصريين عليه، وعنده مروان بن الحكم، فقال: «دعني أكلمهم». فقال عثمان: «اسكت فضّ الله فاك! ما أنت وهذا الأمر؟ اخرج عني»، فخرج مروان.

وقال عليّ ومحمد بن مسلمة لعثمان ما قال المصريون، فأقسم بالله ما كتبت ولا علم لي به، فقال محمد بن مسلمة: «صدق، هذا من عمل مروان».

ودخل عليه المصريون، فلم يسلموا عليه بالخلافة، وقالوا له من جملة ما قالوا: «وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك، فردنا عليّ ومحمد بن مسلمة وضّمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه، فرجعنا إلى بلادنا، فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبدالله^(١١١) بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس».

وحلف عثمان أنه ما كتب ولا أمر ولا علم، فقال عليّ ومحمد بن مسلمة: «صدق عثمان» ولكن المصريين رفضوا التراجع عن موقفهم إلا إذا استقال عثمان عن الخلافة، فإذا أبى فإنهم يقتلونه.^(١١٢) وحصر المصريون عثمان فما برحوا محاصريه حتى قتلوه.^(١١٣)

(١١١) يريدون: عبدالله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر.

(١١٢) الطبري (٣٧٢/٤ - ٣٧٥) وابن الأثير (١٦٨/٣ - ١٦٩).

(١١٣) الطبري (٣٧٥/٦).

لقد بذل محمد بن مسلمة قصارى جهده ليحول دون الفتنة، ووقف مواقف شجاعة مخلصه ليقول كلمة الحق أمام الحشود الغاضبة، وبخاصة في مسجد النبي ﷺ، حين صدّق عثمان في روايته عن النبي ﷺ أن هذه الحشود ملعونة، فاعتدت تلك الحشود على عثمان وهو على المنبر حتى فقد وعيه وحمل إلى داره، فما سكت ابن مسلمة عن الحق ولا خشي غضبة الحشود عليه. وما قصر في نصيح عثمان ولا في نصيح تلك الحشود، ولكن الفتنة كانت أقوى من محاولاته ومحاوله غيره من المؤمنين الصادقين، ويبدو أن الأيدي الخفية التي لا تريد خير المسلمين هي التي كانت تحرك بمهارة تلك الحشود، فانهارت محاولات ابن مسلمة المخلصة الداعية الدائبة، وحققت الأيدي الخفية من أعداء الإسلام أهدافها في تفرقة كلمة المسلمين وإشاعة الفتنة بينهم، وأنهت حياة عثمان رضي الله عنه فمضى مظلوماً شهيداً، وتفرقت تلك الحشود إلى أمصارها لتزرع بذور الفتنة شرقاً وغرباً، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وتوقف الفتح الإسلامي، وأصبحت سيوف المسلمين عليهم لا على أعدائهم.

٣ - اعتزال الفتنة الكبرى:

هزّ مقتل عثمان بن عفان في مدينة الرسول ﷺ وهو خليفة المسلمين الشرعي، كثيراً من أصحاب النبي ﷺ - ومنهم محمد بن مسلمة - هزاً عنيفاً، واعتبروا ما حدث فتنة من الفتن لا تبقى ولا تذر، ومن واجبه وواجب كل مسلم ألا يشارك فيها بسيفه ولا يده ولا لسانه، وألا يدخر وسعاً في إخماد أوارها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن الخطأ أن نعتبر اعتزال محمد بن مسلمة الفتنة لأنه كان (عثمانياً) وأن نعتبر اعتزال أمثاله من كبار الصحابة، لأنهم كانوا عثمانيين، فما كان محمد بن مسلمة منتفعاً من عثمان ولا من عهده مادياً ولا معنوياً، ولا كان متهماً بهذا الانتفاع من قريب أو بعيد، وما كان عثمان بالنسبة لمحمد بن مسلمة إلا رمزاً للشرعية بالإضافة إلى مزاياه الأخرى التي لا يستطيع أن ينكرها عليه عدو ولا صديق، فإذا وقف محمد بن مسلمة إلى جانب عثمان سراً وعلناً، فقد وقف إلى جانب الشرعية دفاعاً

عن المثل الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، وخوفاً من الفتنة التي تُمزق صفوف المسلمين ومنعاً لانتشارها المدمر، وقد حدث ما توقعه محمد بن مسلمة وتوقعه أمثاله من صحابة رسول الله ﷺ المتسمين ببعد النظر والإيمان العميق.

ومن المؤكد أن موقف محمد بن مسلمة المسئول تجاه عثمان موقف ثابت مسئول لو كان الخليفة المُعتدى عليه غير عثمان، فهو موقف مبدئي لا شك فيه وليس موقفاً مصلحياً يتبدل بتبدل الظروف والأحوال.

وأخذت الفتنة تستشري، فكانت وقعة «الجمَل» بين الإمام علي بن أبي طالب وبين المعارضين لخلافته، فقتل يومئذ من المسلمين عشرة آلاف،^(١١٠) وكان ذلك سنة ست وثلاثين للهجرة^(١١٤) (٦٥٦) م.

ثم كانت معركة «صِفِّين» بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قُتل فيها من الفريقين ستون ألفاً من المسلمين.^(١١٥)

وهكذا تساقط المسلمون بسيوفهم، وتوقف الفتح الإسلامي نهائياً، وطمع الروم باستعادة ما فتحه المسلمون من بلادهم، فأصبح الطالب مطلوباً والمنتصر مهزوماً.

وما كان أمام محمد بن مسلمة إلا اعتزال الفتنة، فلم يكن مع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكنه لم يكن عليه، واعتزل معه جماعة من كبار الصحابة منهم سعد بن أبي وقاص وأسماء بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب وغيرهم،^(١١٦) فكانوا ممن اعتزل الحروب بالجمَل وصِفِّين ونحو ذلك^(١١٧).

واعتزل محمد بن مسلمة بالرَّبَذَة^(١١٨) في البادية عن المدينة وأهلها الذين فرقتهم الفتنة أيضاً قال ضَبَّيعة بن حصين الثعلبي: «كنا جلوساً مع حُذيفة بن اليمان فقال: «إني لأعلم رجلاً لا تنقصه الفتنة شيئاً. فقلنا: مَنْ هو؟ فقال: محمد بن مسلمة

(١١٤) العبر (٣٧/١).

(١١٥) العبر (٢٨/١).

(١١٦) أسد الغابة (٣٣١/٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣).

(١١٧) البداية والنهاية (٢٧/٨).

(١١٨) البداية والنهاية (٢٧/٨).

الأنصاري . فلما مات حذيفة وكانت الفتنة ، خرجت فيمن خرج من الناس ، فأثيت أهل ماء ، فإذا أنا بفسطاط مضروب مُتَنَحَّى تضربه الرياح ، فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ قالوا لمحمد بن مسلمة . فأثيته ، فإذا هو شيخ . فقلت له : يرحمك الله ! أراك رجلاً من خيار المسلمين ، تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك ، قال : « تركته كراهية الشر ، ما في نفسي أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت » . (١١٩)

وقد روى محمد بن مسلمة ، أن النبي ﷺ أعطاه سيفاً وقال له : « قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً ، فاثبت به «أحداً» فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية » . (١٢٠)

وروى محمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطاه سيفاً فقال : « يا محمد بن مسلمة ! جاهد بهذا السيف في سبيل الله ، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كف لسانك ويدك ، حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة » ، فلما قتل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان ، خرج إلى صخرة في فائه ، فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره . (١٢١)

وذكر محمد بن مسلمة ، أن رسول الله ﷺ أمره باعتزال الفتنة ، (١٢٢) فاتخذ سيفاً من خشب (١٢٣) قد نحته وصبره في الجفن معلقاً بالبيت ، وقال : « إنها علقته أهيب به ذاعراً » . (١٢٤)

وهكذا تقاعد محمد بن مسلمة ، فكسر سيفه الذي يقاتل به . حين أصبحت سيوف أكثر المسلمين تقاتل المسلمين ولا تقاتل أعداءهم ، وأصبح سيفه من

(١١٩) طبقات ابن سعد (٤٤٤/٣ - ٤٤٥) .

(١٢٠) طبقات ابن سعد (٤٤٤/٣) والإصابة (٦٣/٦) .

(١٢١) طبقات ابن سعد (٤٤٥/٣) وانظر الإصابة (٦٣/٦) .

(١٢٢) الاستيعاب (١٣٧٧/٣) والبداية والنهاية (٢٧/٨) .

(١٢٣) البداية والنهاية (٢٧/٨) .

(١٢٤) طبقات ابن سعد (٤٤٥/٣) ، غمد السيف .

خشب لا يقتل مسلماً، فتقاعد من كان يقال له . فارس نبي الله، ^(١٢٥) وما أتعبه الجهاد ولكن أتعبه الفتنة، فلم يلوث بها سيفه ولا يده ولا لسانه بدم مسلم أبداً.

الإنسان :

كان لمحمد بن مسلمة عشرة أبناء من الذكور، وست بنات : ^(١٢٦) عبد الرحمن وبه كان يكنى، وأم عيسى، وأم الحارث، وأمهم أم عمرو بنت سلامة بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل، وهي أخت سلمة بن سلامة . وعبد الله، وأم أحمد، وأمهما عمرة بنت مسعود بن أوس بن مالك بن سواد بن ظفر، وهو كعب بن الخزرج من الأوس . وسعد، وجعفر، وأم زيد، وأمهم قتيلة بنت الحصين بن ضمضم من بني مرة بن عوف بن قيس عيلان . وعمر، وأمها زهراء بنت عمار بن معمر من بني مرة ثم من بني مرة من بني خصيصة من قيس عيلان . وأنس وعمرة، وأمهما من الأطباء من بطون كلب . وقيس، وزيد، ومحمد، وأمهم أم ولد . ومحمود لا عقب له، وحفصة، وأمهما أم ولد. ^(١٢٧)

وصحب النبي ﷺ من أولاد محمد بن مسلمة : جعفر وعبد الله وسعد وعبد الرحمن وعمر. ^(١٢٨) خمسة ذكور.

أخوه : محمود بن مسلمة، شهد أحدًا والخندق وخيبر، ودلى عليه مرحب اليهودي يوم خيبر رعى فأصابه في رأسه، فهشمت البيضة رأسه، فمكث ثلاثة أيام ثم مات شهيداً. ^(١٢٩)

(١٢٥) طبقات ابن سعد (٤٤٥/٣).

(١٢٦) الاستبصار (٤٢٢)، وأسد الغابة (٣٣٠/٤).

(١٢٧) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣).

(١٢٨) الإصابة (٦٣/٦).

(١٢٩) الاستبصار (٢٤٣).

وأختها : أم عُمَيْس بنت مسلمة ، وهي امرأة رافع بن خديج ، وهي التي نزل فيها قوله تعالى ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾^(١٣٠) وهي من المبايعات لرسول الله ﷺ ،^(١٣١) كما كانت زوج محمد بن مسلمة وهي عمرة من المبايعات^(١٣٢) أيضاً ، وكانت زوجة أم عمرو بنت سلامة بن وقش من المبايعات^(١٣٣) أيضاً .

وهكذا كان محمد بن مسلمة في بيت كله إيمان وتقوى .

لقد كان من أكابر الصحابة^(١٣٤) ومن فضلائهم^(١٣٥) وساداتهم^(١٣٦) وشجعانهم^(١٣٧) وكان موضع ثقة النبي ﷺ وثقة الخلفاء الراشدين من بعده .

وصف شجاعته عباد بن بشر بن وقش الذي كان زميله في قتل اليهودي ابن الأشرف ، فقال في قصيدته التي فيها :

صَرَخْتُ بِهِ فَلَمْ يَعْضُ لَصُوتِي	وأوفى طالعاً من رأس جدر ^(١٣٨)
فَعُدْتُ فَقَالَ مَنْ هَذَا الْمَنَادِي!	فقلت : أخوك عباد بن بشر ^(١٣٩)
فَعَانَقَهُ ابْنُ مُسْلِمَةَ الْمُرَادِي ^(١٤٠)	به الكفار كالليث الهزير ^(١٤١)
وَشَدَّ بِسَيْفِهِ صَلْتًا عَلَيْهِ	فقطره أبو عبس بن جبر
وَكَانَ اللَّهُ سَادِسْنَا فَأَبْنَا	بأنعم نعمة وأعز نصر ^(١٤٢)

(١٣٠) الآية الكريمة من سورة النساء [٤/١٢٨] .

(١٣١) المجبر (٤١١) .

(١٣٢) المجبر (٤١٤ و ٤١٥) .

(١٣٣) المجبر (٤١٧) .

(١٣٤) خلاصة تهذيب الكمال (٣٥٩) .

(١٣٥) الاستيعاب (٣/١٣٧٧) .

(١٣٦) البداية والنهاية (٨/٢٧) .

(١٣٧) الاستبصار (٢٤١) .

(١٣٨) البيت في مغازي الواقدي : صرخت به فلم يجفل لصوتي وأوفى طالعاً من فوق قصر

(١٣٩) الاستبصار (٢٢٠) .

(١٤٠) رادى الرجل عن قومه : إذا ناضل عنهم .

(١٤١) الهزير فى الأصل صفة للأسد ثم أطلقت علماً عليه .

(١٤٢) الاستبصار (٢٣٨) وانظر تمام القصيدة في : مغازي الواقدي (١/١٩٠ - ١٩١) .

روى ستة عشر حديثاً عن النبي ﷺ^(١٤٣)، انفرد له البخاري بحديث^(١٤٤) وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين،^(١٤٥) وكان من أصحاب الفُتَيَّا من صحابة النبي ﷺ، فكان من المحدثين الفقهاء الصحابة رضي الله عنهم.

وكان رجلاً أسود طويلاً عظيماً «ضخم البدن» أصلع^(١٤٦)، أسمر شديد السمرة،^(١٤٨) وهذه هي صفة سواده، فلم يكن أسود فاحماً، بل أسمر شديد السمرة، ذا جثة.^(١٤٩)

ولو أردنا وصف صفاته إنساناً، لأجملنا القول، بأنه يمثل تعاليم الإسلام بكل مثلها العليا تمشي بشراً على الأرض، ولعل أبرز تلك السمات أمانته المطلقة وعفته النادرة وورعه العظيم.

فقد أبى أن يحل ضيفاً على سعد بن أبي وقاص حين قدم الكوفة لإحراق باب قصر الإمارة، وأبى أن يقبل نفقة للطريق أو مؤونة للسفر، فاضطر في سفره البعيد أن يأكل قشور الأشجار ونبات الأرض، فأصيب بالمرض والهزال.

ولما اشترى جرزة حطب من نبطي كوفي ليحرق بها باب قصر الإمارة شرط على بائعها حملها، ثم جاء بها وأحرق باب القصر ورجع، وكان عمر يستعمله على الصدقة.^(١٥٠)

ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة.^(١٥١) أي أنه ولد قبل خمس وثلاثين سنة قبل الهجرة، لأن النبي ﷺ بقي بعد بعثته في مكة ثلاث عشرة سنة.

(١٤٣) أسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٨٣) وخلاصة تذهيب تذهيب الكمال (٣٥٩).

(١٤٤) خلاصة تذهيب تذهيب الكمال (٣٥٩).

(١٤٥) انظر التفاصيل في: الإصابة (٦٣/٦) وتذهيب الأسماء واللغات (٩٢/١) وتذهيب التهذيب (٤٥٤/٩) -

(٤٥٥) وخلاصة تذهيب تذهيب الكمال (٣٥٩).

(١٤٦) أصحاب الفتيا من الصحابة - ملحق بجوامع السيرة (٣٢٠).

(١٤٧) طبقات ابن سعد (٤٤٤/٣).

(١٤٨) أسد الغابة (٣٣١/٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣).

(١٤٩) الاستيعاب (١٣٧٧/٣).

(١٥٠) الاستيعاب (٢٤٢).

(١٥١) الإصابة (٦٣/٦).

ومات سنة ثلاثٍ وأربعين الهجرية^(١٥٦) (٦٦٣ م) وهو يومئذ ابن سبع وسبعين سنة.

وهذا التاريخ لوفاته ما نرجحه، لإجماع المؤرخين عليه، ولأنه يقارب ما بلغ عمره إليه من سنوات، وقيل توفي سنة ست وأربعين الهجرية بالمدينة^(١٥٣) وصلى عليه مروان بن الحكم،^(١٥٤) وقيل توفي في سنة سبع وأربعين وهو ابن تسع وسبعين سنة.^(١٥٥)

وهناك رواية أن أهل الشام قتلوه. فقد دخل عليه رجل من أهل الأردن وهو في داره فقتله،^(١٥٦) لكونه اعتزل عن معاوية في حروبه،^(١٥٧) والرواية ضعيفة لأن أكثر الذين أرخوا له لم يأخذوا بها ولم يتطرقوا إليها، ولإجماعهم على أنه مات بأجله المحتوم.

وقد استوطن المدينة ومات بها، ولم يستوطن غيرها،^(١٥٨) إلا مدة الفتنة، فقد رحل إلى الرُبْدَة في الصحراء - واعتزل الفتنة هناك.

وهكذا انتهت حياة صحابي جليل، كان يملأ الأعين قدراً وجلالاً، والنفوس تقديراً وإجلالاً، والقلوب أسوة ومثالاً، خدام عقيدته والمسلمين ولا يزال ذكره يعطر صفحات التاريخ.

-
- (١٥٢) الطبري (١٨١/٥) وابن الأثير (٤٢٥/٣) وتاريخ أمة بن خياط (١٩٠/١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٤٦/٢) والعبر (٥٢/١).
(١٥٣) طبقات ابن سعد (٤٤٥/٣).
(١٥٤) الاستبصار (٤٢٢).
(١٥٥) تهذيب الأسماء واللغات (٩٢/١).
(١٥٦) الإصابة (٦٤/٨).
(١٥٧) تهذيب التهذيب (٤٥٥/٩).
(١٥٨) أسد الغابة (٣٣٠/٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣).

القائد:

كان محمد بن مسلمة من شجعان الصحابة كما ذكرنا، حتى لقب بفارس نبي الله، فسخر كل شجاعته في إعلاء كلمة الله مجاهداً تحت لواء الرسول القائد عليه الصلاة والسلام جندياً وقائداً مرعوساً على الفرسان تارة وعلى حرس النبي ﷺ ومعسكر المسلمين تارة أخرى، وقائداً لسرايا النبي ﷺ ففضى على أعدى أعداء المسلمين أفراداً وجماعات، وأثر في أعداء الإسلام مادياً ومعنوياً.

وقد أمره النبي ﷺ على نحو من خمس عشرة سرية من سراياه كما نص على ذلك قسم من المؤرخين، ولكن السرايا التي فصلها المؤرخون ثلاث سرايا فقط، هي التي ورد ذكرها في هذا البحث، ومن دراسة نشاطه جندياً وقائداً مرعوساً تحت لواء النبي ﷺ، يبدو أنه كان ذا أثر بارز في كل غزوة من غزوات النبي ﷺ، وفي كل سرية قادها، ولم يكن جندياً عادياً بل كان جندياً متميزاً، ولا قائداً عادياً بل قائداً متحفزاً فهو من جنود العقيدة الراسخة وقادة العقيدة الراسخة، يوظف كل طاقاته في طبعه الموهوب وعلمه المكتسب وتجربته العملية، لخدمة عقيدته والمؤمنين بها، ولا يدخر وسعاً في خدمتهما.

وقد كان يتحلى بالطاعة المطلقة لقادته وأمرائه، والطاعة هي الضبط المتين الذي هو من أهم ما يميز الجندي الجيد على الجندي الرديء والعسكري بصورة عامة على المدني، فكان يحارب الفتنة ومثيريها وأسبابها ومسببيها بكل ما أوتي من قوة وعزم.

وقد كان سريع القرار صائبه، وقراره مبني على المعلومات التي يحصلها عن العدو، وقد كان حرصه على جمع المعلومات عن العدو عظيماً، وكان دائب النشاط لا يكاد يهدأ فلا ينام ولا يُنيم في جمع المعلومات عن العدو التي تعينه على إصدار قرار سريع صائب، كما أن ذكاه اللامع أعانه على إصدار مثل هذا القرار.

وكان يتحمل المسؤولية ولا يتملص منها أو يلقيها على عواتق الآخرين، عارفاً

بنفسيات زملائه ورجاله وقابلياتهم ، فيلقي على عاتق كل واحد منهم ما يتناسب مع نفسيته وقابليته وكفايته .

وكان يثق بزملائه ورجاله ورؤسائه ويحبهم ، ويبادلونه ثقة بثقة ، وحباً بحب .

وكانت شخصيته قوية جداً ، لا يبالي أن يحاسب الأمراء والولاة والقادة دون معاملة أو التزام إلا بالحق وحده دون سواه .

وكان ذا ماض مشرف مجيد ، فهو من قدامى الصحابة وأشرفهم وشجعانهم ، وعلمائهم ، وخدماته للإسلام والمسلمين واضحة للعيان ، كما أنه كان من أشرف الأوس ومن بيوتاتهم الكريمة في الجاهلية وفي الإسلام .

وكان يعرف مبادئ الحرب بالفطرة السليمة التي تدل على استعداد فطري للجندي عامة والقيادة خاصة .

فهو يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، ويحرص غاية الحرص على تحقيق مقصده بدأب واستمرار ، دون أن يشتت جهوده من أجل تحقيق أهداف ثانوية تصرفه عن تحقيق مقصده كاملاً .

وهو يطبق مبدأ التعرض ، فكل معاركه جندياً وقائداً معارك تعرضية ، ولم يخض معارك دفاعية في حياته القتالية .

وهو يطبق مبدأ المباغته ، أهم مبادئ الحرب على الإطلاق ، وقد باغت في إحدى سراياه عدوه مباغته كاملة بالزمان كما ذكرنا .

وهو يطبق مبدأ الأمن ، وكان غالباً المسئول الأول عن قضايا الأمن في غزوات النبي ﷺ قائداً لحرسه وقائداً لحرس معسكره ، فلم يستطع العدو أن يباغت قوات المسلمين أبداً ، لأن ابن مسلمة كان حذراً كل الحذر ، يقظاً كل اليقظة .

تلك هي أبرز سمات محمد بن مسلمة جندياً وقائداً ، فلا عجب أن يكون موضع ثقة النبي ﷺ في حياته المباركة وموضع ثقة خلفائه من بعده ، وأن يستطيع أن يؤدي

واجباته العسكرية بكفاية واقتدار، وأن يثبت وجوده الفاعل في كل غزوة أو سرية شهدها جندياً وقائداً.

محمد بن مسلمة في التاريخ

يذكر التاريخ لمحمد بن مسلمة، أنه كان من قدامى الصحابة ومن أكابرهم ومن فضلائهم وسادتهم وشجعانهم.

ويذكر له، أنه كان مؤثراً في كل غزوة وسرية شهدها، دائب النشاط والعمل لخدمة الإسلام والمسلمين.

ويذكر له، أنه من القلائل الذين تولوا القيادة والإدارة في أيام النبي ﷺ وبأمره.

ويذكر له، أنه أنقذ الإسلام والمسلمين من أعدى أعدائهم أفراداً وجماعات في عهد النبي ﷺ وبتوجيهه.

ويذكر له، أنه لا تأخذه في الحق لومة لائم، فكان محاسب القادة والأمراء والولاة بلا هوادة ولا مجاملة.

ويذكر له أنه اعتزل الفتنة في الصحراء بعيداً عن داره وأهله، هارباً بدينه منها، ولم تجرفه الفتنة كما جرفت غيره.

رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، القائد المنتصر، المحدث الفقيه، محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري.

